

التفسير المختصر - سورة القصص (٢٨) - الدرس (١٤-١٨) : تفسير الآية ٥٧ ، وقالوا إن نتبع الهدى معك نتخطف من أرضنا أو لم نمكن لهم حرماً آمناً يجبي إليه ثمرات لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: ١٩٩٥-٠٩-١١

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد الصادق الوعد الأمين، اللهم لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم اللهم علمنا ما ينفعنا وأنفعنا بما علمتنا وزدنا علماً، وأرنا الحق حقاً وارزقنا اتباعه وأرنا الباطل باطلاً وارزقنا اجتنابه، واجعلنا ممن يستمعون القول فيتبعون أحسنه وأدخلنا برحمتك في عبادك الصالحين.

أيها الإخوة الكرام، في هذه السورة آيةٌ دقيقة جداً، والمسلمون في أشد الحاجة إلى فهم معناها، وهي قوله تعالى:

﴿وَقَالُوا إِن نَتَّبِعِ الْهُدَى مَعَكَ نَتَّخِطُفَ مِنْ أَرْضِنَا أَوْ لَمْ نُمَكِّنْ لَهُمْ حَرَمًا آمِنًا يُجْبَى إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِزْقًا مِنْ لَدُنَّا وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (٥٧)﴾

[سورة القصص]

فحينما كنتم تعبدون الأصنام، وحينما كنتم في تيه وضلال، وحينما أكلتم المال الحرام، مكناً لكم حرماً آمناً، فلماً أسلمتم وتبتم تتخطفون من أرضكم ! أيعقل هذا؟! سيدنا موسى فيما تزوي الكتب، دعا ربه بالسقيا، فقال له الله عز وجل وكان كليم الله: إن فيكم عاصياً ! فقال موسى عليه السلام: من كان فينا عاصياً لله فليُغادرنا ! لم يُغادر أحد، والسماء نزلت بأ مطار غزيرة، فقال: يا رب، من هذا العاصي الذي عصاك ؟ فقال الله عز وجل فيما تزوي الكتب: عجبت لك يا موسى أسرتُهُ وهو عاص وأفضحهُ وهو تائب ! قال تعالى:

﴿وَقَالُوا إِن نَتَّبِعِ الْهُدَى مَعَكَ نَتَّخِطُفَ مِنْ أَرْضِنَا﴾

[سورة القصص]

أخي أنا إذا اتبعتُ هذا المنهج القرآني في البيع والشراء أموت من الجوع أنا وأولادي ! وإن لم أكذب لا أمشي أموري ! وإذا لم أعش فلا أربح ! فهل يُعقل هذا؟! فأنت بالمعصية والله تعالى يرزقك ويحفظك فإذا رفعت مستوى طاعتك إلى الله، وتبنت إليه يتخطفك من أرضك فهل يُعقل من هذا الإله الجليل أن يُدمرك حين تعبده؟! وإذا الواحد خاف من الله، ولم يودع ماله بالمصرف، وخاف، فلا بد أن يقتلوه ! والذي لم يخف من الله مطمئن ! هل هذا معقول؟! حينما تعصي هذا الإله يأمئك، وحينما تطيعه يُدمرك !! هذه هي مشكلة العالم الإسلامي الآن !! قال تعالى:

﴿وَقَالُوا إِن نَتَّبِعِ الْهُدَى مَعَكَ نَتَّخِطُفَ مِنْ أَرْضِنَا﴾

[سورة القصص]

هناك وهم من الشيطان أنك إن أطعت الله تعالى يُدمرك، يقول لك: لا بد أن يكون مظهري ليس دينياً ! ولا أطيق الدين كي أرتاح ! قال تعالى:

﴿أُولَٰئِكَ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا آمِنًا يُجْبَىٰ إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِزْقًا مِنْ لَدُنَّا وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (٥٧)﴾

[سورة القصص]

من هم ؟ الكفار ؛ عبدة أوثان وشاربي خمر، وفوضى جنسية لا حدود لها، والمرأة تتزوج عشرة رجال في وقت واحد، يطوفون بالبيت وهم عراة، وفي هذه المعاصي كلها، وحفظكم الله وآمنكم، ووفر لكم حرماً آمناً ! فلما جاءكم رسول الله صلى الله عليه وسلم بالهدى ودين الحق ؛ فإذا آمنتم تتخطفون من أرضكم ! هل يقبل عقلك هذا الكلام؟! معظم المسلمين يرى المعصية فيها طمأنينة والطاعة فيها مشكلة، ويرى أنه إن قيد نفسه بالشرع يصبح معزولاً، وإن تعامل مع هؤلاء الذي انتهكوا حرمة الله أصبح مقبولاً عند الناس، أين التوحيد؟ ما من آية المسلمون في أشد الحاجة إلى فهمها كهذه الآية، قال تعالى:

﴿وَقَالُوا إِن نَتَّبِعِ الْهُدَىٰ مَعَكَ نَتَّخِطِفُ مِنْ أَرْضِنَا أَوْ لَمْ نُمَكِّنْ لَهُمْ حَرَمًا آمِنًا يُجْبَىٰ إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِزْقًا مِنْ لَدُنَّا وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (٥٧) وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ بَطَرَتْ مَعِيشَتَهَا﴾

[سورة القصص]

أنتم إذا طلبتم المال بالمعصية، وأصبحت من أثرياء البلاد، فكَم من قرية أهلكتها، وقد بَطَرَتْ معيشتها، قال تعالى:

﴿فَتِلْكَ مَسَاكِنُهُمْ لَمْ يَسْكُنْ مِنْ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ (٥٨)﴾

[سورة القصص]

الأنباط والتدمريون، وعاد وثمود، والفراعنة ؛ أين هم؟! هؤلاء الذين عصوا لكي لا يتخطفوا، أين مصيرهم؟ قال تعالى:

﴿إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ (٢٥) ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ (٢٦)﴾

[سورة الغاشية]

وقال تعالى:

﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِي أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَىٰ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ (٥٩)﴾

[سورة القصص]

الله عز وجل لا يأخذ غرة، فهو تعالى لا يأخذ إلا حين يبين من خلال الأنبياء والرسل، والعلماء والدعاة والكتاب الذي يتلى صباح مساء قال تعالى:

﴿وَلَقَدْ وَصَلْنَا لَهُمُ الْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (٥١)﴾

[سورة القصص]

أيها الإخوة، في الحقيقة هي بشارة، فما من إنسان أتى له أن يسمع الحق صافياً إلا وعلم فيه الله الخير، والآية الكريمة:

﴿وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ (٢٣)﴾

[سورة الأنفال]

فَإِذَا أَسْمَعَكَ اللهُ الحَقَّ فهذه بَشَارَةٌ وما عليك إلا أن تستجيب، قال تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ
المرءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ (٢٤)

[سورة الأنفال]

ذَكَرْتُ كَثِيرًا أَنَّ اللهَ تعالى من سُنَنِهِ أَنَّهُ يَبْدَأُ مع عَبْدِهِ بالدَّعْوَةِ البَيَانِيَّةِ تَسْمَعُ خُطْبَةً أو دَرْسًا، أو
تَقْرَأُ كِتَابًا تَسْمَعُ شَرِيطًا، هذه دَعْوَةٌ من الله وجعل لك حاجة بهذا المكان، أذن الظُّهُرَ وَسَمِعْتَ
كَلِمًا فَتَأَثَّرْتَ ! ليس هذا صُدْفَةً، قال تعالى:

﴿ثُمَّ جِئْنَا عَلَى قَدَرٍ يَامُوسَى﴾ (٤٠)

[سورة طه]

فَلَمَّا رَبَّنَا عز وجل يُسْمِعُ عَبْدَهُ الحَقَّ، فَمَعْنَى ذلك باليقين، والاستدلال القطعي أَنَّ اللهَ تعالى عِلْمٌ
فيه خَيْرًا، ولأنَّهُ عِلْمٌ فيه خَيْرًا أَسْمَعَهُ الحَقَّ وتَسْمَعُ قِصَصًا عَجِيبَةً، تَجِدُ إِنْسَانًا ما كان له أن يجلس
في هذا المَجْلِسِ أو في أيِّ مَجْلِسٍ عِلْمٍ آخَرَ، وَلِسَبَبٍ غَرِيبٍ وَنَادِرٍ سَأَقُهُ اللهُ لِمَجْلِسٍ عِلْمٍ فَانْعَقَدَتْ
مع الله تعالى تَوْبَةً وَصِلَةً، فَكان مَبْدَأُ الصَّلْحِ مع الله، وَإِذَا رَجَعَ العَبْدُ إلى الله نادى مُنَادِي في
السَّمَاوَاتِ والأَرْضِ أن هِنُنُوا فَلانًا فَقَدِ اصْطَلَحَ مع الله، فَإِذَا سَمِعَ الواحِدَ الخَيْرِ، وجعلك اللهُ بِبِلَدِ
إِسْلامِي فلو كنت في أمريكا والعياذ بالله، فهذه القضايا لَيْسَتْ صُدْفَةً، فالله تعالى عِلْمٌ فيكَ خَيْرًا،
والله خَلَقَكَ لِيُسْعِدَكَ في الآخِرَةِ فَأَنْتَ أَوَّلًا في بِلَدِ إِسْلامِي تَسْمَعُ الأَذَانَ، وهناك مساجد، ودُروس
علم وهناك بَقِيَّةَ حَيَاءٍ وَخَجَلٍ، وَبَقِيَّةَ وِفاءٍ، واستقامة، فَأَنْتَ بِنِعْمَةٍ، تَجِدُ مَنْ هم في بلاد الغرب
يقولون: نحن الأذان مَحْرُومُونَ منه !! نوادي وخمور ومصائف، أما أنت ففي بِلَدِ إِسْلامِي تُقَامُ فيه
شعائرُ اللهُ ومساجدُ مُكَنِّظَةٌ بالمُصَلِّينَ، هذه نِعْمَةٌ كَبِيرَةٌ، والله تعالى قال:

﴿وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ الْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ (٥١)

[سورة القصص]

قال تعالى:

﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِهِ هُمْ بِهِ يُؤْمِنُونَ (٥٢) وَإِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ قَالُوا آمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ
مَنْ رَبَّنَا إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ (٥٣) أُولَئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا وَيَدْرَءُونَ
بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾ (٥٤)

[سورة القصص]

لَمَّا قال النبي عليه الصلاة والسلام: عَنِ أَنَسٍ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ:

((كُلُّ ابْنِ آدَمَ خَطَّاءٌ وَخَيْرُ الْخَطَّائِينَ التَّوَّابُونَ))

[رواه الترمذي]

ماذا ينبغي أن تعمل ؟ كَلِّمًا أخطأتَ تَدْفَعُ صَدَقَةً، عَنِ أَبِي ذَرٍّ قَالَ: قَالَ لِي رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((اتَّقِ اللهُ حَيْثُما كُنْتَ وَاتَّبِعِ السَّيِّئَةَ الْحَسَنَةَ تَمَحُّهَا وَخَالِقِ النَّاسَ بِخُلُقٍ حَسَنٍ))

[رواه الترمذي]

فإن لم يكن معك فصم أسأتِ اعتذري، وغفلت عليك أن تتذكر فالمؤمن يحرسُ على نفسه وقال بعضهم: المناقق يعيش في حال واحدٍ أربعون عاماً، أما المؤمن فيتقلب في اليوم الواحد أربعين مرةً من شدة حرصه، ومن شدة خوفه، فسيئنا عمر بن الخطاب ألم يبشّر بالجنة؟ نعم، والبشارة ثابتة فلم قال: لبت أم عمر لم تلد عمر! غفل ونسي البشارة، ولكنه استحضر عظمة الله عز وجل والمسؤولية وقال له: قرقر أيها البطن أو لا تقرقر، فوالله لن تذوق اللحم حتى يشبع منه صبيته المسلمين! وجاءه رسول من أذربيجان، وكانت تابعة إلى عمر بن الخطاب في عهده ووصل إلى المدينة ليلاً، فكره أن يطرق باب الخليفة في الليل فدخل إلى المسجد، فسمع رجلاً يقول في الظلام: يا رب، هل قبلت تويتي فأهناً نفسي، أو رددتها فأعزيتها فقال الرسول: من أنت يرحمك الله؟ فقال: أنا عمر، فقال له: يا أمير المؤمنين ألا تنام الليل؟ فقال: إن نمت ليلي كله أضعت نفسي أمام ربي، وإن نمت نهاري أضعت نهاري! إن الله عملاً بالليل لا يقبله بالنهار، وإن الله عملاً في النهار لا يقبله في الليل! كان أصحاب النبي عليه الصلاة والسلام رهباناً بالليل، وفُرساناً بالنهار، وأمرٌ رائعٌ جداً أن تجد إنساناً متفوقاً في عمله، ونظام وديقة ونظافة ومواعيد، وإنجاز وتجده بالليل يصلي بالإهمال لابد أن لا يكون من المؤمنين، أكل نقاعة وما غسلها، يقول لك: كلها وسم بالله!! يمرض ابنه ويقول: الله الشافي! ما هذا الجهل؟ وما هذا الانحطاط؟ أهكذا أمرك الله؟ الله تعالى أمرك أن تأخذ بالأسباب ثم تتوكل عليه، تجد أحدهم صالحاً ولكن ليس منضبطاً، والآخر منضبط ولا يوجد فيه الصلاح، أما الأصل أن ترى مؤمناً أعلى درجة في الذكاء والفهم والتصرف، وفي الوقت نفسه في الورع والزهد والصلة بالله عز وجل، يا أمير المؤمنين ألا تنام الليل؟ فقال: إن نمت ليلي كله أضعت نفسي أمام ربي، وإن نمت نهاري أضعت نهاري! إن الله عملاً بالليل لا يقبله بالنهار، وإن الله عملاً في النهار لا يقبله في الليل! وبقي معه إلى الفجر فصلى الفجر وأخذته إلى بيته، فقال لها: يا أم كلثوم ماذا عندك من طعام لضيقتنا؟ فقالت له: عندنا ملحٌ وخبز، فقال لها: هاتيه لنا! فأكل وشرب وقال: الحمد لله الذي أطعمنا وسقانا، وبعد أن أكل مع ضيقه قال له: ما الذي جاء بك إلينا؟ فقال له: هذه هدية أرسلها عاملك على أذربيجان ففتحها فإذا بها: حلوة!! أكل واحدةً فرأها ذات طعم طيب، ثم توقف فقال له: يا هذا هل يأكل عندكم عامة المسلمين هذا الطعام؟ فقال الرسول: لا، هذا طعام الخاصة، فلفظ عمر ما أكل، وقال: حرام على بطن عمر أن يذوق طعاماً لا يأكله فقراء المسلمين، ثم بعث بهذه العربة لأهل الصفة ليأكلوها، وأرسل كتاباً إلى عامله على أذربيجان، وقال له: كل مما يأكل منه عامة المسلمين، فكيف يعينك أمرهم إن لم تأكل من طعامهم؟! وبذكر الصالحين تنتزل الرحمت، وأنا أنصحكم جميعاً، لا تذكر إلا الصالحين في مجالسك، فإن أردت أن يتعكر المجلس، ويضيق قلبك أذكر أهل الدنيا وغير الصالحين؛ البخلاء والمتعنتين، وقد مرت معي أحاديث تنهى عن ذكر غير الصالحين أذكر الصالحين كي ترى نفسك تتوق لهم، وإلى ورعهم وإلى زهدهم. أيها الإخوة، الملخص قوله تعالى:

﴿وَقَالُوا إِن نَّتَّبِعِ الْهُدَىٰ مَعَكَ نُنْخِطِفُ مِنْ أَرْضِنَا أَوْ لَمْ نُمْكِنْ لَهُمْ حَرَمًا آمِنًا يُجْبَىٰ إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِّزْقًا مِنْ لَدُنَّا وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (٥٧)﴾

[سورة القصص]

وما ترك عبداً شيئاً لله إلا عوّضه الله في دينه ودنياه.

والحمد لله رب العالمين